

جدلية سطوع وأفول حركات الإسلام السياسي بعد ثورات الربيع العربي

د. طوال عبد العزيز

د. جاب الله بوجمعة

جامعة زيان عاشور - الجلفة-

مقدمة

لطالما وقفت المؤسسة العسكرية في العالم العربي حائلا بين الأحزاب الإسلامية وبين وصولها إلى الحكم أو حتى الاستقرار فيه (إن وصلت) والتجربتان السودانية والمصرية خير دليل على ذلك، وهو الأمر الذي جعل أنصار الإسلام السياسي في العالم العربي يتحفظون إلى حد الرفض فكرة التأريخ لمرحلة ما بعد الإسلامية التي أشار إليها عالم الاجتماع الأمريكي "أصف بيات" أو حتى عالم الاجتماع الفرنسي "أوليفيه روا". ولعل هذا الطرح (أفول الإسلام السياسي) كان الواقع يكذبه حين تحقق الأحزاب الإسلامية الفوز متى ما أتيحت لها فرصة المشاركة في الانتخابات مما يدل على أن المزاج الشعبي لا يزال يتعاطف مع الخطاب الإسلامي ..

لكن جاءت التجربة التونسية متمثلة في الانتخابات الرئاسية والتشريعية 2014، لتجعل الدارسين والمهتمين يتساءلون في ما إن كانت مرحلة ما بعد الإسلامية قد بدأت واقعا حين نزع الشعب ثقته من حركة النهضة عبر صناديق الانتخاب بعيدا عن تدخل المؤسسة العسكرية.

من خلال ما سبق تأتي هذه المقالة لمناقشة الأسئلة التالية :

- ✓ هل كان انتخاب حركات الإسلام السياسي هو ما تصبوا إليه ثورات الربيع العربي ؟
- ✓ ما هي أسباب تغير المزاج السياسي في المخيال العربي.. وهل لذلك دور في فشل حركات الإسلام السياسي في المحافظة على السلطة (تونس - مصر) نموذجا.
- ✓ ما مدى إمكانية تجاوز الإسلام السياسي عبر السبل والآليات الديمقراطية ؟.

1. مفهوم ما بعد الإسلامية :

تشير كلمة "الـ"ما بعد" إلى انتهاء توجهات معينة دونما النجاح في تأسيس غيرها، أو إلى تحولات عميقة داخل ظاهرة فكرية واجتماعية نبى بتطورها على نحو مغاير لأصول تكوينها. وقد استخدم المحللون الغربيون المصطلح للإشارة إلى نهاية مرحلة الإسلام المقاتل وبداية مرحلة جديدة اتجه فيه الإسلامويون إلى تبني الانتخابات بديلاً عن الرصاص مثلما أوضحه "أوليفيه روا" عالم الاجتماع الديني الفرنسي الشهير في كتابه "فشل الإسلام السياسي".

في نفس السياق نجد أن عالم الاجتماع الأمريكي "أصف بيات" يريد بهذا المفهوم "ما بعد الإسلاموية" أن يشير إلى الوضعية التي تتأكل فيها شرعية وجود الحركات الإسلامية سواء كانت في المعارضة أو في السلطة، بما يدفعها إلى تجديد نفسها ومراجعة أصولها الفكرية وبنية مشروعها الفكري والسياسي.

2. ظروف تشكل الحركة الإسلامية :

لعل المتتبع لدوافع تشكل الحركات الإسلامية، والقارئ لبيانات التأسيس لا يكاد يجد اختلافا كبيرا بينها.. هذا من ناحية... من ناحية أخرى هذه الحركات الإسلامية هي حركات دينية أصولية، وبروزها إنما يأتي غالبا كما يقول "ريتشارد هيريكمان" في كتابه "الأصولية في العالم العربي" : في فترات من الإغفاء والأزمات الحادة الروحية والاجتماعية والسياسية. فهي (أي الحركات الدينية) تأخذ في بادئ الأمر شكلا وهدفا دعويا، ثم ما تلبث أن تتحول إلى حركات سياسية تنشُد السلطة وتناضل للوصول إليها.. ولعل التاريخ يحفل بالعديد من الأمثلة التي تبرهن على هذا القول.. فلقد كان المرابطون والموحدون فرقا دينية قبل أن يصبحوا دولا، وعلّة وجودهم هي الدعوة الدينية، أين تسمع الناس بأخبارهم وأنهم يطلبون الجنة والنجاة من النار، ثم تطورت مطالبهم وإستراتيجية عملهم واتخذوا من شعار " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " وسيلة لمهاجمة القضاة والحكام، وتحملهم مسؤولية التفريط في مبادئ الشريعة الإسلامية.. ليصير المطلب في الأخير هو تغيير نظام الحكم مغلفا بشعار تطبيق الإسلام الصحيح الذي أفسده من يتولون أمر المسلمين،⁽¹⁾

هذا الاستهلال يحيلنا إلى قراءة نتائج سقوط الخلافة العثمانية في بداية القرن العشرين، حيث بدأت مرحلة تنحية الشريعة الإسلامية عن حياة المسلمين العامة، فتم علمنة التعليم والقضاء واستيراد النظريات الاجتماعية الغربية..⁽²⁾ وبدأت العلمانية تحتل المواقع واحدا بعد الآخر كما يقول المفكر اللبناني (ألبرت حوراني)⁽³⁾، وأمام هذا الواقع تنادى العلماء في بلاد المسلمين أفرادا وجماعات، وعملوا على تصنيف الكتب ونشر الفتوى والبيانات لرفع وعي المسلمين، خاصة وأن هناك أسئلة بدأت تثار حول الإسلام وشموله وصلاحيته لكل مكان وزمان، وهو الأمر الذي أدى إلى بروز ((الإسلام الحركي)) منذ عقد الثلاثينيات بصورة متصاعدة.⁽⁴⁾

(1) ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي (من الفتح العربي إلى اليوم)، ترجمة : عبد الرحمن بدوي، ط2، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1981، ص : 227. (بتصرف)

(2) وليد بن عبد الله الهويريني، عصر الإسلاميين الجدد، المملكة العربية السعودية، د ت ن، ص : 90.

(3) انظر الفكر العربي في عصر النهضة ببيروت : دار النهضة، ص : 179

(4) محمد أبو رمان، الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي، ط1، بيروت : الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010، ص : 27.

من هنا نلاحظ أن حركات الإسلام السياسي، نمت في سياق التصدعات السياسية التي عصفت بالبلاد العربية والنكبات التي توالى عليها، حيث كان يترسخ حضورها في الساحة السياسية والاجتماعية كلما حلت بالأمة العربية أو الإسلامية نكبة من النكبات (هزيمة 1967 م) أو تأججت الصراعات المجتمعية المحلية (النظام / المعارضة) .ووفق هذا المسار صارت ظاهرة الإسلام الحركي ظاهرة وظيفية مؤقتة، تسهم العوامل السياسية والمتغيرات الدولية والمحلية في سطوع نجمه على ساحة الصراع السياسي والحراك الاجتماعي تارة أو في أفوله وانحساره تارة أخرى.

3. الثورة التونسية وإعادة اكتشاف الحركات الإسلامية (حركة النهضة نموذجا):

ما كاد الرئيس التونسي السابق "زين العابدين بن علي" يفر حتى كان الآلاف يرحبون بعودة الزعيم الإسلامي المنفي "رشيد الغنوشي" والذي بدأ يدعو إلى مجتمع إسلامي .، هذه الدعوة التي لم يكن غالبية المتظاهرين الذين أسقطوا " بن علي " يعرفون عنها شيئا ، فالذي أخرج هؤلاء إلى الشارع هو ظروف اقتصادية طاحنة كانوا يعيشون فيها.⁽⁵⁾

لكن التيار الإسلامي استطاع أن يقدم نفسه على أنه التيار المخلص ، الذي يملك مشروع إعادة بناء مجتمع العدل الذي ساد في الأيام الأولى للإسلام من خلال رفع شعارات ((الإسلام هو الحل / دولة اسلامية /.. الخ)) .ولقد كان لهذه الشعارات جاذبيتها وسط الجماهير نظرا للفساد المستشري داخل النظام السياسي، وما ترتب عنه من البحث عن المخلص ، والتعلق بمن يقدم نفسه وفق هذا المنظور .

ومن أهم حركات الإسلام السياسي التي قدمت نفسها للشعب التونسي نجد حركة النهضة والتي طالما عانت من وضعية إبادة واستئصال سياسي، وهذا نتيجة حالة الانغلاق السياسي التي تميز بها النظام التونسي، والحساسية الشديدة التي كان يبديها من نشاط الإسلاميين ، حيث مارس عليهم شتى أنواع التضييق والاستئصال، وعلى إثر قيام الثورة التونسية ركبت حركة النهضة كغيرها من التشكيلات السياسية التونسية الموجة الثورية في تماه مع المزاج الشعبي السائد في تلك اللحظة التاريخية ، لكن يبدو أن الحركة فوجئت كغيرها من الحركات والتشكيلات السياسية التونسية بسرعة سقوط نظام الرئيس بن علي .، وهي الحركة (حركة النهضة) التي ركزت نضالها وأدبياتها خلال عقود من الزمن على كيفية تغيير السلطة لا كيفية توليها وإدارتها ، حيث يبدو أنه لم يكن في حساباتها - ولو من باب الاحتمال - أنها ستصل يوما ما إلى السلطة ، لذلك بدا واضحا بعد ذلك أن لا تملك مشروعا لإدارة السلطة .

(5) جون آر برادلي ، ما بعد الربيع العربي (كيف اختطف الإسلاميون ثورات الشرق الأوسط) ، ترجمة : شيما عبد الحكيم طه ، القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر ، 2013، ص 89

هذا الواقع التونسي الذي لم يكن في الحسبان أتاح للمتابعين إعادة اكتشاف الحركات الإسلامية، فظهر أنها حركات شعبية وأن الأطروحة التي تقدمها لا تتجاوز في مجملها دغدغة مشاعر الجماهير وتحريك عواطفهم الدينية، حيث أن الجمهور كما هو معلوم سريع التأثير، سريع التصديق، يعوزه الحس النقدي، وعواطف الجمهور بسيطة جدا على الدوام وشديدة التأرجح.(6)

وانطلاقا من هذا المعلوم عملت حركة النهضة على استقطاب الجماهير من خلال الاعتماد على طرحين في نفس الوقت، طرح كما قلنا سابقا يقدم الحركة في ثوب المخلص، وطرح يستدر تعاطف الجماهير عبر استحضار دور الضحية، كونها الحركة التي عانت أكثر من غيرها من بطش النظام الحاكم وقدمت قوافل من الناشطين في سبيل إعلاء راية الإسلام وكلمة الله، ومما يحسب للحركة أنها أتقنت هذه اللعبة على خلاف باقي التيارات السياسية الأخرى، الأمر الذي أتاح لها التقدم في انتخابات المجلس التأسيسي، وتشكيل الحكومة.

غير أنه وبعد أشهر قليلة من سقوط بن علي وتولي النهضة رئاسة الحكومة بدأت الأصوات تتعالى والمواقف تتشنج، حيث بدا للمتابعين أن الحركة لم تغير من أهدافها ومنطلقاتها، فهي تنظر للسلطة على أنها أداة لتنفيذ الشريعة التي هي بدورها قواعد وأحكام تضبط السلوك في المجتمع، وبهذا المفهوم لم يعد الشعب التونسي سوى رعايا مطيعون وليس مواطنون ذوي حقوق.. فتعرضت النساء للهجوم لعدم ارتداء الحجاب، وجاب المتعصبون الشوارع بحثا عن العصاة.(7) هذه المواقف المتشنجة للناشطين والمتحمسين الإسلامويين عجل بالتصادم مع الأحزاب العلمانية والحركات النسوية، وتجسد هذا التصادم في المعارضة الشرسة التي أبدتها نواب (الحزب الشيوعي/"المسار") لإدراج الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريع في الدستور، كما دعى الحزب إلى ضرورة تحييد المساجد عن العمل السياسي.(8)

(6) سيغmond فرويد، علم نفس الجماهير. ترجمة: جورج طرابيشي، ط1، بيروت: دار الطليعة، 2006، ص: 33.

(7) جون آر برادلي، مرجع سابق، ص 89

(8) محمد الرحموني، العلمانيون في تونس - صراع الفكر والسياسة -، ط1، بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2013، ص: 25.

4. تغير المزاج السياسي في المخيال العربي ودوره في فشل الاسلاميين في المحافظة على السلطة (تونس - مصر)

نموذجا.

في كتابه (علم نفس الجماهير) يقول سيغموند فرويد: "...الجمهور اندفاعي، سريع الحركة، سريع الانفعال .. ولا شيء عند الجمهور مسبق التصميم ، فحتى عندما يرغب في شيء ما رغبة عارمة ، فإنه لا يرغب فيه لأمد طويل من الزمن ". من الحقائق التي لم يتنبه إليها الإسلامويين ما تقرره مقولة فرويد السابقة ، حيث تأكلت شعبية الإسلامويين بنفس السرعة التي تولوا فيها مقاليد الحكم ، وهذا نتيجة طوباوية الشعارات وطوباوية البرامج ، فمفهوم الدولة الإسلامية الذي تدعوا إليه حركات الإسلام السياسي هو مفهوم هلامي، وشعارات (الإسلام هو الحل) أو (الإسلام دين ودولة) هي من المواضيع التي تحتاج إلى تفسير وتبسيط موضوعي وعلمي من حيث التطبيق والأجراء .

لقد اصطدمت كل الحركات الإسلامية حين اقتربت أو وصلت إلى السلطة بمعضلة تحويل تلك الشعارات إلى واقع عملي ، فهي شعارات تتحدث عن الدولة كما يجب أن تكون لا كما هي على أرض الواقع .

ولقد تأكد للشعب في التجريبتين التونسية والمصرية ، ضبابية المشاريع التي تحملها حركة النهضة التونسية وحزب الحرية والعدالة المصرية ، الأمر الذي أدى إلى فتور فورة الحماس والعواطف التي أوصلت الحركتين إلى سدة الحكم . ويمكن رصد أهم الأخطاء التي وقعت فيها حركة النهضة التونسية وحزب الحرية والعدالة المصرية في النقاط التالية :

1. طوباوية الشعارات وطوباوية البرامج .
2. غياب التخطيط الاستراتيجي المستقبلي وسيادة ردود الأفعال الآتية والارتجالية .
3. التخلي عن الجانب التربوي والدعوي .
4. غياب التدرج في بعض المطالب الإصلاحية بما لا يتلاءم مع الواقع السياسي .
5. اعتقادهم أنهم يملكون الرصيد والخبرة التي تمكنهم من خوض تجربة الحكم بمفردهم .
6. الخطاب والسلوك الإقصائي للآخر المخالف .
7. زرع جو من عدم الثقة عند مختلف الفاعلين السياسيين حول جدية الإسلامويين في الإيمان بمبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان .
8. تبني آراء ومواقف وبيانات خارجة عن النسق الإسلامي الحركي الذي طالما نادى به الحركات الإسلامية وتشربه الأعضاء (الموقف من الكيان الإسرائيلي مثلا) .

إذا أمكن أن نصنف تلك الأخطاء المذكورة آنفاً على أنها الأسباب المباشرة لتغير المزاج السياسي الشعبي المؤيد لحركة النهضة التونسية وحزب الحرية والعدالة المصرية، فهذا يجعلنا نسلط الضوء على أسباب غير مباشرة أدت إلى تغير المزاج السياسي الشعبي المؤيد لحركات الإسلام السياسي عموماً وحركتي النهضة والحرية والعدالة خصوصاً، وهي:

1. تعثر مسيرة ما يسمى الصحوة الإسلامية في تسعينيات القرن الماضي وبروز تيار العنف أدى إلى الركود الدعوي ، مع الفراغ في ظهور قيادات كاريزمية جاذبة للجمهور .

2. الحملة على ما يسمى بالإرهاب - خاصة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 .. وانتشار التطرف .

3. الانفتاح المعلوماتي وشبكة الانترنت سهل الوصول للمعلومة الدينية وأنشأ جيلاً جديداً بعيداً عن المحاضن الإسلامية التقليدية.

5. ما مدى إمكانية تجاوز الإسلام السياسي عبر السبل والآليات الديمقراطية ؟

شكلت الانتخابات الرئاسية والتشريعية التونسية في 2014 الاستثناء ، إذ لأول مرة في العالم العربي تتم إزاحة الإسلاميين عبر صناديق الاقتراع ، وبعيداً عن تدخل المؤسسة العسكرية ، هذه التجربة التي أبانت أن المزاج السياسي الشعبي الذي كان منهراً بالخطاب السياسي ذو البعد الديني ، تغير وانقلب عليه ، من خلال معاقبة حركة النهضة عبر صناديق الاقتراع .

هذا الواقع يجعل المتتبع يتساءل ألم يكن من الأجدي لو سلك التجارب العربية الأخرى نفس المسلك (الجزائر في تسعينيات القرن الماضي ، ومصر في 2013) ، وجعلت الشعب هو من يزيح تلك الحركات عبر السبل والآليات الديمقراطية ؟ أما كان الإحتكام إلى صناديق الاقتراع سيجنب البلدين صناديق الموت وحمامات الدم والإنقسام بين أفراد المجتمع ؟ .

أم أن النظر إلى هذين التجريبتين (الجزائرية والمصرية) بعين التجربة التونسية اليوم ، هو كما يقال قياس مع الفارق ..؟ إذ أن الأصح ، أنه لولا التجارب الفاشلة للإسلاميين في الجزائر ومصر ما كان إسلاميو تونس ليقبلوا بحكم الصندوق ويسلموا السلطة بكل سلمية ..

الأمر فيه جدل صحيح ، ومتعدد الأبعاد نظراً لتعدد الظاهرة بحد ذاتها ، لكن الثابت الوحيد أن المزاج الشعبي ليس ثابتاً ، وأن الدين في مخيال الشعوب إذا ما اقترن بالسياسة صار مثله مثل باقي الأيديولوجيات القابلة للنقد وحتى للرفض والإبعاد .. بما ينفي وينزع عنه صفة القدسية ، فالدين موجود في المخيال السياسي كونه معطى ثقافي لا يمكن تجاوزه حين نريد مخاطبة الشعوب ، ويمكن تجاوزه حين يوضع محل التطبيق .

خاتمة:

الحديث عن الحركة الإسلامية هو حديث لم تنته تداعياته بعد ، وقد يكون من المبكر الحسم بإنحسار هذا التيار وتقهره من المشهد السياسي العربي .. طالما أن الأنظمة العربية تعيد إنتاج مبررات وجوده، وطالما أن التركيبة النفسية للجماهير لا تتغير ، خاصة إذا علمنا أن الإسلام السياسي يستمد قوته من أخطاء وضعف الآخرين والعلمانيون تحديدا حين يعملون أو يصرحون بأفعال تنم عن عدم احترام هوية الشعب وعقيدته .

أخيرا نقول أن مسار الديمقراطية في العالم العربي مازال طويلا وأن الأمر يحتاج إلى أكثر من مجرد التخلص من الحكام المستبدين وإجراء انتخابات نزيهة، بل الأمر يتطلب من الإسلاميين إعادة اكتشاف كيفية التوفيق بين الإسلام التقليدي والشرعية الإسلامية، وبين مفاهيم مثل حقوق الإنسان وجميع المبادئ الأساسية الأخرى للديمقراطية. ويتطلب تجديد الخطاب العلماني المتكلس وخروجه من دائرة حشر الآخر (الإسلامي) في زاوية الظلامية والرجعية .

المراجع:

1. ألفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي (من الفتح العربي إلى اليوم) ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، ط2، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1981.
2. وليد بن عبد الله الهويراني ، عصر الإسلاميين الجدد ، المملكة العربية السعودية ، د ت ن.
3. انظر الفكر العربي في عصر النهضة بيروت : دار النهضة .
4. محمد أبو رمان ، الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي ، ط1، بيروت : الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، 2010.
5. جون آر برادلي ، ما بعد الربيع العربي (كيف اختطف الإسلاميون ثورات الشرق الأوسط) ، ترجمة : شيماء عبد الحكيم طه ، ط1، القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2013.
6. سيغموند فرويد ، علم نفس الجماهير. ترجمة : جورج طرابيشي، ط1، بيروت: دار الطليعة، 2006.
7. محمد الرحموني ، العلمانيون في تونس- صراع الفكر والسياسة - ، ط1، بيروت : مركز نماء للبحوث والدراسات ، 2013.